# فلسفة الأخلاق عند الرواقيين

د. طـــه جـــزاع
جامعة بغداد / كلية الآداب

يمثل الرواقيون مع الأبيقوريين العصر الثالث في الفلسفة اليونانية ، إذا ما اعتبرنا العصر الأول يمثله الفلاسفة الطبيعيون ، والعصر الثاني وهو الذي يعد قمة الفلسفة اليونانية والذي نضج على أيدي سقراط وأفلاطون وأرسطو ، أما العصر الرابع فهو العصر الخاص بأشكال وتيارات ومذاهب الأفلاطونية المحدثة .

ويمكننا أن نعد الفلسفة الرواقية بعامة فلسفة أخلاقية فقد اشتهر الفلاسفة الرواقيون بأنهم أخلاقيون ، بمعنى انهم يتجهون إلى الحياة الروحية الداخلية للإنسان ولا يهمهم بما يقع له من أحداث خارجية ، فهم معنيون بالدرجة الأولى بسيطرة النفس على انفعالاتها ، ويهمهم أداء الواجب بما يرضي الضمير ويطمئن النفس .

أن المعاني الفلسفية هي التي تهم الرواقيين من أجل أن يقدموا للإنسان أساساً أخلاقياً للسلوك ومبدأ راسخاً للحياة الفاضلة ، فالمهم عندهم أن يسعى الإنسان للأخلاص في أداء الواجب والثبات على المبدأ والسعي الى تحقيق المثل العليا .

أن أسم الرواقية مأخوذ من كلمة الرواق ، تلك المدرسة التي أنشأها (زينون) في مدينة أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، وصار الأسم الذي يطلق على طلبة هذه المدرسة أسم الرواقيين أو أصحاب الرواق أو أصحاب المظلة ، ومن الجدير ذكره أيضاً أن الرواقية القديمة كانت معاصرة للمدرسة الرواقية ،

ومما لاشك فيه أن فلاسفة المردسة الرواقية أهتموا بالفلسفة ولكن أهتمامهم الأول والأكثر أهمية كان أهتماماً أخلاقياً .

لقد أثرت الرواقية بالمسيحية كثيراً ، كما أنها أثرت بالعالم الروماني على أيدي شيوخها الأوائل (زينون) و (كليناتس) و (كروسيوس) وأن من الذين ساعدوا على أنتشارها الخطيب الروماني الشهير (شيشرون) الذي ما لبث أن أعتنق مبادئ الرواقية من بعد مجموعة من الفلاسفة ، أشهرهم (سنيكا) و (ابكتيتوس) و (مرقس أورليوس) حتى كان لهم الأثر الواضح في التشريع الروماني ، أما في القرون الأولى للمسيحية فقد تأثر بفلسفتهم الفيلسوف الأسكندراني (أفلوطين) .

ينظر الرواقيون الى الفلسفة على أنها علم الأمور الآلهية والأمور البشرية، ولما كان العقل في أعتقادهم هو العنصر المشترك بين العالم الآلهي والعالم البشري فقد صح أن يقال في تعريف الفلسفة انها علم الموجودات العاقلة ، لأن الأشياء الطبيعية مندمجة في الأشياء الآلهية ، وبذلك فأن الفلسفة عند الحكيم الرواقي واحدة ، يتناولها نظره في جملتها ومن غير تجزئة ، لكنها لما كانت واسعة الآفاق وذات مسالك كثيرة ، فقد يضل من ليس له بها خبرة صحيحة . ومن أجل هذا قسم الرواقيون الفلسفة ثلاثة أقسام : أولها المنطق الذي يدرس السبل لمعرفة الأشياء ، والثاني علم الطبيعة الذي يبحث فيه عن الله وعن الأشياء ، والثالث علم الأخلاق وموضوعه دراسة السلوك الإنساني .

أن المعرفة عند الرواقيين حسية عقلية ، بعبارة أخرى فأن الرواقيين حسيون عقليون . أنهم يعطون لدرجة الأولى في المعرفة للحس ثم تأتي المعرفة لعقلية بعد ذلك أنهم يقولون (لا شيء في الذهن ما لم يكن من قبل في الحس) فالإحساس إذن أول مراتب المعرفة . وإذا كان فكر الإنسان قادراً على التجريد والإضافة والتأليف والنقل ، فهو لا يستطيع الخروج عن مقدمات الإحساس . الحواس عندهم إذن هي وسيلة المعرفة ، ووظيفة العقل هي ربط الأفكار والمعاني ربطاً يتألف منه نظام يسمى بالعلم . مع هذا فهم يرون أن الحواس خادمة ، وإن العقل يسيطر على الحواس سيطرة الملك على رعيته .

وبذلك فإن العقل عند الرواقيين قوى يرى الإنسان بها الأسباب والنتائج ، ويفهم سيرها ويقارن بين المتشابهات ويربط الحاضر بالمستقبل .

أن معيار الحق عند الرواقيين هو العقل الصريح أو العقل المستقيم والعقل المستقيم عندهم هو حسن استعمال العقل الذي يشترك الناس فيه كافة دون تفريق . وإن القوة العقلية الفعالة قوامها الفعل النفسي ، الذي يحيط بالشيء إحاطة شاملة .

فالإحاطة والتصديق هما الفعلان الأساسيان من أفعال العقل الصحيح باعتباره معرفة .

كما آمن الرواقيون بمعيار الأجماع أو رأي الجماعة ، ومع أن الإجماع ليس في ذاته دليلاً على الحق ، بل هو أقصى ما يستطيع إجماع الناس على شيء، هو أن يكون دليلاً على معنى يوجد في نفوس الناس قاطبة . وإذا زاد استمساك الناس به ، أقتربوا من مرتبة الحكمة .

يرى الرواقيون أن الله علة الأشياء وهو إذن كسائر العلل له مادة قد أتصل بها اتصالاً وثيقاً ، وهذه المادة هي العالم . الله إذن يجوس خلال العالم وفي كل مكان . والله روح العالم ، ومعنى ذلك انه نفس ناري لا صورة له ويتخذ صور الأشياء كما يشاء . والله كامن في الإنسان كمونه في كل شيء ، وهو الموجود الأزلي الباقي العاقل السعيد الكامل المبرأ من كل نقص ، خالق لعالم ، ومبدع الأشياء وصانعها .

والعالم في نظر الرواقيين كامل الوحدة ، وليس هناك إلا إله واحد ، إن هذا الإله هو خالق العالم وهو في الوقت نفسه حقيقة العالم الجوهرية . الله هو الموجود العاقل السعيد أبو الموجودات جميعها .

أن الرواقيين يستدلون على وجود الله بجمال ونظام العالم ، بأعتبارهما صنع العناية الإلهية . إن تدبير العقل الإلهي يسهر على مصلحة الخلائق جميعاً ، لأن العقل الذي أحدث الأشياء هو فرق العقل الإنساني . والإنسان عاجز عن ان يصنع الأشياء التي في العالم وعن أن يدبرها وفق إرادته ، إذن فوجود العالم

وجماله يدلان على وجود كائن عاقل أرفع من الإنسان ، وليس هذا الكائن شيئاً آخر غير الله .

إن كل موجود في الطبيعة له غاية ينظر الرواقيين ، ولا شيء يحصل عبثاً من غير قصد . إن الأخس موجود من أجل الأرفع وخادم له : فالنبات والحيوان وجودهما لأجل الإنسان ، والإنسان مدار الطبيعة ومركزها وعلتها الغائية ، فالعالم وما فيه ليس له غاية إلا الإنسان .

وفي موضوع الإرادة البشرية فإن الرواقيين يقررون أنها إرادة حرة وإلينا يرجع الأمر في تحقيق الخير الأخلاقي ، إذ أن لنا قدرة على أحكامنا وتصرفنا ، لأن انفعالاتنا وأهواءنا مردها أحكامنا على الأشياء . نحن إذن مختارون ، ونستطيع أن نحرر أنفسنا من أحداث الحياة . أما الشيء الذي يصيب الإنسان ، فإن أهل الرواق قالوا إن بعض الشر راجع إلى ما منح الله الناس من حرية التصرف في شؤونهم . فالناس قد يسيئون استعمال هذه الحرية في شؤون كثيرة ، كالصحة والحياة والمال والسلاح . ولا يمكن على كل حال أن نعد الإلهة مسؤولين عن العواقب التي تنجم عن حرية الإنسان .

وهكذا نجد أن الفلسفة الرواقية في مصيمها مذهب أخلاقي ، فحيثما تكون الفلسفة الرواقية تكون الأخلاق . ومهما اختلف الرواقيون فيما بينهم على كثير من المسائل الفلسفية ، ولكن نظرتهم إلى الأخلاق واحدة ، ليس إلى المساس بها من سبيل والأخلاق لها المكان الأول في الفلسفة الرواقية . والفلسفة عندهم ممارسة الفضيلة ، والفضيلة عند الرواقيين أشرف صناعة ، لأنها تلائم طبيعة البشر ملاءمة خاصة . وإن الفلسفة هي بحد ذاتها منهج مستقيم في الحياة ، بل هي ناموس حياة جميلة فاضلة .

إن حياة الإنسان في رأي الرواقيين ، هي الحياة التي تكون وفاقا للعقل إذ أن العقل هو الجزء الرئيس في الإنسان ، وإن الإنسان الذي يحيا وفاقا للعقل يكون موافقاً للكون بأسره . فالعقل لا يختص بالإنسان وحده ، بل هو يخص الوجود

الكلي ، وما العقل الإنساني إلا جزء من العقل الكلي الشامل ، إننا بالعقل ، نحيا على وئام مع أنفسنا ، كما نحيا على وئام مع العالم أجمع .

أن العبارة التي قالها زينون (الحياة وفقا للطبيعة) تعني إن الإنسان ينبغي عليه أن يعيش وفاقا للعقل . وبعبارة أخرى أن خير الإنسان وسعادته عبارة عن الحياة وفقا للطبيعة الكلية ، لأن الإنسان حين يحيا وفقا للعقل أنما يحيا وفقا للقانون الكبير الذي يحكم العالم .

وعلى هذا المنوال فإن الفضيلة تعني العقل الكامل السليم الذي يظل دائماً متسقاً مع نفسه . فالرجل الفاضل الحكيم الذي تسير حياته وفقا للعقل يكون مواطنا حقيقياً من مواطني العالم ، أما الرجل الخبيث فيكون على عكس ذلك ، فهو يكون على خلاف مع نفسه ومع الموجودات جميعاً .

إن الإنسان الحكيم هو الذي يعرف كيف يحيا حياة فاضلة ، وإن الحكمة هي التي تكفل له ذلك . لأن الحكمة في حقيقتها هي في الحياة . وإن سبيل الحياة الفاضلة ، في أن يتخذ الإنسان لنفسه موقفا واحداً ثابتاً لا يتبدل . أما إذا كان الناس لا يسيرون في حياتهم على مقتضى العقل والحكمة ، فسلوكهم يبقى متغيراً متقلباً .

لعل أهم ما يهدف إليه الإنسان في حياته هو تحقيق السعادة والابتعاد عن المزالق التي تؤدي إلى الخطأ والحزن والندم والمرض والبؤس . ويرى الرواقيون إن السعادة بأيدينا ، وإن باستطاعة كل فرد أن يحرر نفسه من أوهام الأحكام ، وذلك إذا ما أستعمل الإنسان إرادته كسلطان قوي على الأحكام .

وقد لاحظ الرواقيون إن الانفعالات النفسية تقف حجر عثرة في طريق السعادة ، ولذلك فهم يعتقدون أن تحقيق السعادة يكمن في السيطرة على انفعالات النفوس وأهوائها ، أن الرجل قد يصيبه الألم فيحتمله تارة ويبقى مالكا زمام نفسه ، وتارة يضنيه الألم ويفت في عضده . والإنسان بحسب رأي أصحاب الرواق يستطيع أن يقرر بحريته إذا كان يليق به أن يستسلم إلى الألم أو لا يليق .

ويرى الرواقيون أنه لا يجوز لنا عقلاً ان نطلق على الحوادث الخارجية أحكاماً تعرضنا للانفعالات النفسية التي تحرمنا سعادتنا وراحة ضميرنا وهكذا لا

يصح وصف الأشياء بالحسن ولا بالقبح ، كما لا يجوز مدح الدهـــر ولا ذمـــه ، والإنسان الحكيم من ينظر إلى كل ذلك نظرة لا مبالاة وقلة اكتراث .

هذا الإنسان بنظر الفلاسفة الرواقيون أشبه الناس بشخص معصوم ، لأنـــه إنسان لا سلطان للأهواء والانفعالات على نفسه ، وإن سهام الحوادث تنكسر تحت قدميه . أنه لا يحس بالألم ، ولا يتأثر بشيء ولا يعتريه الهم ، وهو الغني من غير مال ، أنه باختصار يعيش في أكمل سعادة ، فهو غني وحر وجميـــل فـــي وقـــت واحد. أنه الحاكم والقاضي ورجل الدين ، وهو الخطيـــب والشـــاعر والنحـــوي والموسيقار . أنه باختصار يحيط بكل فن ويتقن كل صنعة ، ويعلم الأمور الإلهيـــة والإنسانية جميعها .

وهكذا نجد أن الرواقيين يرون ان الحكمة كالعقل بسيطة مطلقـــة لا تقبـــل الانقسام ، وأن الحكيم حائز على الفضائل كلها وإن الرجل عندهم فاضل كـــامل أو غير فاضل ، فالرجل برأيهم لا يكون فاضلاً إلا حين يبلغ الفضيلـــة كاملـــة . ولا توسط عندهم بين الفضيلة والرذيلة ، لأن العقل المستقيم هو العقل الكامل ، فـــهو إما إن يكون وجوداً بأكمله أو لا يكون .

إن العقل المستقيم هو المعيار الوحيد للخير والشر ، وكل فعل يتم بمقتضى العقل المستقيم هو فعل مستقيم ، أي فعل حسن مثل الاعتدال والحكمة والشـــجاعة والعدل . وكل فعل يتم من دون العقل المستقيم هو فعل قبيح ، كالجهل والإســـراف والجبن والظلم .

والرواقيون ينصحون بالإخلاص للواجب وما الإنسان بنظرهم إلا جزء من الكون ، وأمامه مهمة عليه أن يؤديها ، وإن كل إنسان أشبه بضيف في هذه الدنيـــا فينبغي عليه أن يكون مخلصاً لواجبه ، الإنسان يجب عليه أن يثق بنفســـــه ، وإن يمضي بأداء مهمته وبالإخلاص لأداء واجبه المنوط به .

لعل ما يميز الرواقيين عن الفلاسفة اليونانيين السابقين ، أنهم لم ينظـــروا إلى الإنسان نظرة ضيقة متعصبة ، بل أنهم نظروا إلى الإنسان كونه ينتمي إلـــى

أسرة الإنسانية الكبيرة ، التي أعضاؤها البشر كافة ، مهما كانت درجات نحلهم وألسنتهم مختلفة ، فهم قبيل واحد ، تحت راية الإنسانية .

إن ذلك ما أطلق عليه (بالجامعة الإنسانية) التي نادى بها أصحاب الرواق في العصر القديم . إن تلك الوحدة تذهب في القول بوجود رابطة أخلاقية تربط بين الإلهة وبين بني الإنسان . وإن الواجب على الناس أن يكونوا أخوانا في مملكة تشمل الإنسانية كلها ، وتسير وفقا لما يمليه العقل ، لم يكن هدفهم سياسياً في إقامة مملكة سياسية ، بل أرادوها جامعة روحية تقوم على وحدة المعرفة والإرادة .

أما فلسفة الأخلاق عند الرواقية الرومانية المتمثلة بـ (سنيكا) و (ابكتيتوس) و (مرقس اورليوس) فإنها لم تقتصر على مذهب الأخلاق القديم بل أدخلت عليه فنا جديداً لا يخلو من مرونة وإصابة في تحليل ما في طبيعة الإنسان من ضعف وعظمة ، وفي بيان شتى العلل لذلك ، كما أنها أدخلت طرقا جديدة لمعالجة أمراض النفوس ، ونظرت نظرة واقعية في مختلف مراتب الكمال والسبل الى بلوغها .

أن (سنيكا) الذي ولد في السنة الرابعة قبل ميلاد المسيح ، يرى أن الشرف الصحيح الذي يناله الإنسان هو ذلك الشرف الذي يناله بنبل قلبه وعظمة نفسه ، فهو ينصح الإنسان أن يكون قلبه سليما وإن يخمد شهواته ، وإن يوثق صلاته بالآخرين بالوجه الحسن ، وإن على الإنسان أن يكون مطمئن النفس ، وإن يكون طريقنا في الحياة الأعتدال في الطعام والشراب . ويرى (سنيكا) أن الناس كلهم أخوة ، ولذا يجب عليهم أن يتعاونوا على البر ، مثل إطعام المسكين وانتشال الغريق وإغاثة الملهوف وهداية الضال .

أما (ابكتيتوس) فقد أخلص للفكر الرواقي سيرة وفكرا . خصص حياته للفلسفة وتعليم الناس . لقد كان رواقيا في حياته كما كان رواقيا في أقواله ودروسه. أن الفكرة التي تسود فلسفته هي فكرة الحرية التي أغفلتها الفلسفة الرواقية القديمة . إذ يرى أن الحرية هي من أجل الخيرات وأوفر النعم التي نصيبها في هذه الدنيا . والحرية عنده هي ان يتصرف الإنسان في أفكاره وإرادته

بحيث لا يمكن قهره على غير ما يريد . وأن على الرجل ان يفرق بين نوعين من الأشياء في الحرية الإنسانية ، أشياء تتعلق بقدرنا واختيارنا مثل أفكارنا وعواطفنا وإرادتنا وأفعالنا ، والأشياء التي لا تتعلق باختيارنا ولا قدرة لنا عليه مثل أبداننا وأموالنا وجاهنا ومناصبنا وما أشبه ذلك . أما أداء الواجب فأن (ابكتيتوس) يرى انه ينبغي علينا أن نؤدي واجباتنا الطبيعية وما تفرضه علينا النظم الاجتماعية باعتبارنا مواطنين في المجتمع .

أما (مرقس أورليوس) الذي ولد في روما عام (١٢١) ميلادية ، فهو يرى أن الخير الأسمى في الصبر ومتانة الاخلاق . إنه يدعو الى طيبة القلب واستقامة الضمير وفعل الخير لأجل الخير وإن على الإنسان برأيه ان يعيش وفقا للعقل ، وإن يحقق استقلاله النفسي ، بأن يتغلب على الانفعالات والرغبات والمخاوف . وأنه إذا بلغ مثل هذا الاستقلال عاش حراً غير مقيد ، وعاش في حصن حصين ، لا يمسه مكروه ولا يستطيع أحد أن يلحق به ضرراً .

وينظر (مرقس أورليوس) الى الموت نظرة طبيعية ، فهو يقول على الإنسان الا يحتقر الموت وإلا يخاف منه ، لأنه جزء من عمليات الطبيعة ، أنه يذهب للقول أن على النفس ان تكون مستعدة لمفارقة البدن إذا ما أقتضى الحال .

هذه هي "الرواقية" فلسفة وأخلاقاً وأثراً بالغاً ترددت صداه على مدى القرون والأجيال وتركت بصماتها في هذه الفلسفة أو تلك ، شاهدا على اصالة التفكير الفلسفي المجدد الذي بلغ ذروته السامقة عند الثلاثي الأكبر (سقراط ، أفلاطون ، أرسطو) لكنه لم يتوقف عند القمة حائراً متردداً يائساً ، بل أستجاب لعصره ليضيف للفلسفة اليونانية مشكلات وحلولاً جديدة ، ويضيف للفكر الأخلاقي على وجه الخصوص أفكاراً وآراءً ما زالت تلاقي الأعجاب والتقدير إلى يومنا هذا .

## المصـــادر :

١ – عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ، القاهرة ١٩٥٩ .
٢ – عبد الرحمن بدوي : خريف الفكر اليوناني ، القاهرة ١٩٧٠ .
٣ – عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، بيروت ١٩٨٧ .
٤ – عبد الرحمن بدوي : الأخلاق النظرية ، الكويت ١٩٧٥ .
٥ – يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، القاهرة ١٩٥٨ .
٦ – الموسوعة الفلسفية العربية ، بيروت ١٩٨٨ .
٧ – الموسوعة الفلسفية المختصرة ، القاهرة ١٩٦٣ .
٨ – زكريا إبراهيم ، المشكلة الخلقية ، القاهرة ١٩٦٩ .
٩ – عادل العوا ، المذاهب الأخلاقية ، دمشق ١٩٥٨ .
١٠ – بارودي ، المشكلة الأخلاقية ، القاهرة ، من دون تاريخ .
١١ – أبو بكر ذكرى : تاريخ النظريات الأخلاقية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
١٢ – سدجويك : المجمل في تاريخ علم الأخلاق ، القاهرة ١٩٤٩ .
١٣ – محمد علي أبو ريان : تاريخ الفكر الفلسفي ، الأسكندرية ١٩٨٤ .